أسبقية العربية الفصحى على العامية

تحقيق وترجمة الدكتور خليل سمعان
أستاذ في جامعة ولاية نيويورك
(بنغمتن)

ننشر فيما يلي نبذة في ابطال راي القائلين بترك اللغة العربية الصحيحة واستبدال اللغة العامية بها في الكتب والكتابة لأمين فكري بك احد اعضاء الوفد العلمي المصري بمؤتمر السويد والنرويج ورئيس النيابة العامة بمحكمة مصر الابتدائية الاهلية سابقا وتجدون النص الانجليزي في مكان آخر :

ذهب بعض الناظرين في اللغات الشرقية ، من رجال اوروبا ، الى ان اللغة العربية المستعملة للتخاطب اليوم ، في البلاد التي يتكلم فيها باللسان العربي ، قد صارت في غاية البعد عن اللغة العربية الفصيحة الاصلية ، حتى صح ان تعد (5) كل منهما لغة مستقلة عن الاخرى ، بحيث لو فرض ان اتى الى جهة يتكلم اهلها باللغة المستعملة الآن ، كمصر وسوريا ، من لا يعرف الا اللغة الفصحى ، لم يمكن ان يفهموا منه ، او يفهم منهم ، الا بعد طول المعاشرة والمخالطة .

قالوا : وغاية ما يمكن لقائل ان يقول ، في النسبة (10) بين اللغة العامية المستعملة بين العرب وبين اللغة العربية الفصيحة ، هو ان اللغة العربية الفصيحة اصل لهذه اللغة العامية، وان هذه فرع تلك، كما يقال ان اللغة اللاتينية اصل للغة التليانية ، وان هذه فرع تلك . ثم راى اهل هذا المذهب ان اللغة العامية وافية بحاجات (15) في التفاهم ، ولهم ان يستعملوها في جميع انواع المعاني ، عالية ودانية ، علمية ، وادبية ، وصناعية ، وشرعية ، وسياسية ، وبالجملة في كل ما يراد من معنى له مكان من ضروريات الانسان ، او حاجياته ، او كمالاته ، ولهم ان يستعملوها كتابة ، وتاليفا ، كما يستعملونها(20) نطقا اما اللغة فهي من البعد عنهم بحيث لا تصلح للتفاهم بينهم في ضرب من ضروب المعاني ، اللهم الا اذا انفقوا في تعلمها ازمانا طوالا ، وبذلوا في دراستها ما استطاعوا من جهد وقوة .

وبنوا على ذلك ان اختصاص العلوم ، والاداب(25) وفنون الصنائع ، واصول الشرائع ، ونحو ذلك ، باللغة الفصيحة مما يقضي على اهل اللغة العربية بالحرمان من التقدم في معارفهم وآدابهم بجميع انواعها.

وقد قال بعض مشاهير السياسة ، في الكلام على مصر ، ما نصه : « واخال ان امل التقدم ضعيف (30) ما دامت العامة تتعلم اللغة الفصيحة العربية ، لغة القرآن ، كما في الوقت الحاضر ، بدل ان تتعلم اللغة العربية المستعملة ، لان نسبة اللغة المصرية الى لغة القرآن كنسبة الايطالياني الى اللاتيني والاغريقي الحديث الى الاغريقي القديم . وعربية الفلاح لغة قائمة (35) بنفسها ، وقواعدها خاصة بها . واذا لم تؤخذ هذه الاحتياطات الواجبة

للحصول على النتائج الفعلية من المدارس المتعددة التهذيبية ، لاستمر الجيل الجديد كسابقه ، غير صالح لخدمة وطنه ، سواء كان فى القيادة العسكرية ، او فى الصنائع ، او فى الخدم العامة ، (40) وتظل عبارة « مصر للمصريين » ، كما كانت ، اسما بلا مسمى » انتهى كلامه . وبالجملة قد قالوا ان الامة العربية ، اذا بقيت علومها وآدابها مختزنة فى العبارات الفصيحة ، كانت كأنها فى لغة اخرى غير العربية . ولا يصل آحاد الامة الى حاجة من ذلك الا بعد ان (45) يصرف الجزء الاهم من عمره فى تحصيل اللغة . فلو ان العلوم نقلت الى اللغة العامية ، وهي لغة الاب والام وجميع الخلطاء ، يتعلمها الصبي كما يتعلم المشي والاكل والشرب ، لكان عنده من فضل الزمن ما يصرفه فى تحصيل تلك العلوم وهو فى اوائل الصبا (50) ، وكان الزمن الذي يستغرقه فى تعلم اللغة الفصيحة محفوظا للتوسع فى العلوم والآداب ، وبذلك يسهل تعميم الفنون اللازمة لحاجات الامة وبثها فى نفس جميع آحادها بدون استثناء . فان اغفلت هذه الوسيلة لم يوجد سبيل لتعميم الفنون (55) ، ولا لتحسين التربية العامة . وهكذا لج هذا الوهم باربابه حتى كاد يلتحق بالآراء المعتد بها .

اما نحن فنخالفهم ونذهب غير مذهبهم لوجوه :

الاول ، ان ما يجدونه من الصعوبة فى اختصاص اللغة الفصيحة بالعلوم والفنون ، واستئثارها بالكتابة (60) ، سيجدونه فى نقل العلوم الى اللغة العامية ، بل يجدون فى الثانى ما هو اشد من الاول .

فان اللغة العامية تختلف باختلاف الاقطار والبلاد ، بما لا ينقص عن الاختلاف بين العامي والفصيح ، بل ربما زاد . فان جميع ما قالوه فى صاحب اللغة الفصيحة اذا (65) ورد الى بلد من بلاد العرب التي يتكلم فيها باللغة العامية ، وحاله مع اهل ذلك البلد ، يكون بعينه ، او اكثر ، فى مصرى ذهب الى بلاد المغرب الاقصى او الجزائر او سورية ، وهكذا من يجيء من تلك الجهات الى مصر ، اذا كان لم يدخل المكاتب ، ولم يسبق له مخالطة اهل البلاد التي جاءها .

(70)فانا لا نشك فى انك اذا قلت لمصرى عامى (كيف حالك) باللغة الفصحى ، من غير لحن ، تجده يفهم من هذه العبارة ما اردت ، بخلاف ما اذا قال له المغربى (اشنك) او (آشنتايا) . وكذلك فهم المغربي العامي ، اذا قلت له (كيف حالك) ، اسهل من فهمه لقول (75) العامي المصري (ازيك) . وهكذا يفهم المصري قول العربي الفصيح (ما هو) بخلاف قول المغربي (آشنوا) او (شيهو) ، او قول السوري (شكلوا) . وكذلك يفهم المغربي والسوري من قولك (ما هو) اكثر من قول المصري (ايه هوا) او (هوا ايه) . (80) وكذلك قولك للمصرى (هذا الوقت) اسهل عليه فهما من قول المغربي (توا) او (دروق) او (دروك) ، او قول النابلسي (هالقيت)، وقول البيروتي (هلا) ، بتفخيم اللام ، والطرابلسي (هلا) بترقيقها . وقولك (عمامه) اسهل عليه من قول المغربى (85) (كشطه) ، او الشامي (لفه) ، فانه لا يفهم اللغة الا بمعنى الثوب الذي يلف فيه الطفل الصغير هو رضيع غير مفصل عليه . وقولك (النعل) او (النعال) اسهل من قول المغربي (الصباط) ، و (كثير) اسهل من قوله (ياسر) او (بالزاف) ، (والعطفه) (90) اسهل من (الزنقة) ، و (سفينه) اسهل من (شقف) او (شقوف) ، و (رواق) اسهل من (برطال) . وقولك (امضاء) اسهل من قوله (خنفوسه) ، وقولك (امضيت الكتاب) (95) اسهل من (خنفست الكتاب) و (الكتاب مخنفس) . وقولك (هل عندك ساعه) اسهل من قول المغربى

(ثماش منقاله) (1) ،.وتولك (كم الساعة) اسهل عليه من تول المغربي (قداش التعديل) . (100) و (حمص) اسهل عليه من تول الشامي (اضامة) ، وهكذا مما يطول ايراده ولا ينحصر تعداده .

وليس مرادنا هنا الترجيح بين لغة من اللغات العامية وغيرها ، بأن نقول ان المصرية اسهل او ارجح من السورية او المغربية مثلا ، او احداهما اسهل (105) او ارجح من المصرية : بل اردنا ان نبين ان اللغة الفصيحة ، بعد ان يجتنب منها (فى تعليم الفنون والصنائع) الغريب وغير المألوف استعماله ، هى بالنسبة لكل واحد من ذوي اللغات العامية المختلفة اسهل واقرب تناولا من اللغة الخاصة (110) بغيره ممن لم يخالطه . واللفظ العربي الفصيح ، بالنسبة للعامي المصري ، اقرب من العامية المغربية والسورية ، وبالنسبة للعامي المغربي اقرب من العامية المصرية والسورية ، وبالنسبة للسوري اقرب من العامية المصرية والمغربية ، لما (115) يطرق آذان الجميع من سماع الفاظ القرآن ، والحديث ، والمواعظ ، وغير ذلك مما يعم الجميع كما سياتى .

وقد اتفق لي من نحو سنتين ، انني جلت فى بعض بلاد الشام ، مع سيدي الوالد ، فلقينا كثير من فضلاء نبلائها ، ونجباء ادبائها ، منهم الفاضل الشهير ، الشيخ عبد المجيد افندي الخاني، الخالدي، النقشبندى فكنا نفهم منهم ويفهمون منا بالسهولة ، بخلافنا فى التكلم مع العامة ، السوقة ، فكثيرا ما كانوا لا سيما اذا اسرعوا فى التكلم يستغلق بيننا وبينهم الكلام ، وينسد الباب دون فهم المرام ، حتى يترجم (120) لنا الاستاذ الخالدي ، المشار اليه ، وكان يلازمنا ايام مقامنا بدمشق ، فى كل آن ومكان ، فقد جمع بيننا وبينه من اللغة الصحيحة ما لم تجمعه اللغة العامية بيننا وبين العامي البحت ، وما ذاك الا لان لغتنا العامية المصرية غير لغتهم العامية الشامية .

(130) واتفق فى سفرنا هذا ، الى هذه البلاد ، اني دخلت ايام مكثنا بمدينة باريس ، عاصمة بلاد فرنسا ، الى احد محال التجارة بها وهو المعروف بمخزن اللوفر ، مع السيد الوالد المشار اليه ، ورفيقنا بهذا الحفل النبيل ، من مصر فلقينا هنالك ، بحكم الاتفاق (135) من غير قصد ، رجل من باعة البضاعة بذلك ، سبق له اقامة (2) مدة مديدة فى بلاد الجزائر ، حتى اعتاد التكلم باللغة العامية المتداولة بها كأهلها ، فلما توسم فى زي ملابسنا اننا من اهل اللغة العربية ، وتحقق ذلك بالسؤال منا ، وهو (140) انما يعرف من اللغة العامية المغربية ما عرفه ببلاد الجزائر ، اخذ يتكلم معنا بتلك اللغة مع طلاقة وذلاقة لسان . غير أن كثيرا من كلامه كان يستعجم علينا فما يفهمه منا الا رفيقنا الشيخ حمزة ، وكذا كلامنا بالنسبة للرجل (145) حتى يفهمه الشيخ الموما اليه . وذلك لان الشيخ اقام سنين من عمره فى بلاد المغرب وتونس ، فكان يترجم بيننا وبين الرجل الى ان جاءت النوبة الى شراء ما يختص بى ، ورايت التفاهم بينى وبين الرجل لا يتيسر الا بواسطة ترجمة الشيخ . (150) فوجدت الاقرب تناولا والاقل زمنا، ان يكلمنى بلغته الفرنساوية، ورجوته فى ذلك ، فأجاب ، وسهل تعاطي الكلام بيني وبينه ، فكانت اللغة الفرنساوية الاصيلة بالنسبة له،

---

1) قوله (منقاله) ــ هذه القاف تقرا عندهم كالقاف فى نطق صعيد مصر وكالجيم فى نطق اهل القاهرة اى غير معطشة . وانظر ما يكتب به مثل هذه القاف اذا اريد نقل الكتابة الى اللغة العامية ــ أتكتب بالقاف وهي لا ينطق بها كالقاف المعروفة فى قراءة القرآن فيلزم تمييزها عنها ؟ ام تكتب بالجيم فيلزم تمييزها عن الجيم الحقيقية ؟ والا كيف يتميز مثل قولنا (قده) اذا كتبت بالجيم من قولنا (جده) ؟ ومثل هذا كثير جدا .

2) هكذا فى النص .

الطارئة بالنسبة لي ، أقرب لي تناولا من اللغة المغربية العامية ، لمكان (155) التباعد بينها وبين العامية المصرية . وكذا كان الحال مع من لقيناه غير هذا الرجل ، من أهل المغرب ، من الحديثي العهد بالاقامة فى بلادنا ، لاسيما ان كان من أهل المغرب الاقصى . فان اللغة العربية المغربية تكاد ان تكون بالنسبة لنا رطانة أجنبية ، اللهم الا (160) ان تكلم باللغة الصحيحة ، فان فهمها حتى بالنسبة الى العامى منا أقرب من تلك بكثير .

وأخبرني السيد الوالد ، ابقاه الله ، انه لما سافر الى البلاد الحجازية ، لاداء فريضة الحج ، كان فهمه لكلام اهلها ، بل اعراب باديتها ، اقرب واسهل مما مر (165) بكثير جدا ، لقربه الى اللغة الفصيحة . وقد تستغرب الكلمة فى استعمال احدهم فيرجع اليها من يستغربها فى كتب اللغة ، كالقاموس، فتوجد نصا ، مثل لفظ « الضلع » بمعنى (جانب الجبل) . قال : وقد سألت عاميا من اعراب البادية هناك عن معنى « الضلع » فقال : « الضلع ضلع الجبل » (170) واشار اليه، «وضلع الانسان» ، واشار الى ضلع نفسه . فلما وافقت لغتهم العامية صحيح اللغة العربيةفى البعض، وقربت منه فى البعض، سهل فهم ما وافق المستعمل فى لسان العامة ، ووجود غير المستعمل فيه بكتب اللغة .

بخلاف ما اذا لم يفهم المصري مثلا قول الشامي (175) فى عاميته الشامية ، (قالشين) ، أو (قمباز) ، أو (منتان) ، او لم يفهم الشامي قول المصري ، فى عاميته المصرية ، (شراب) ، أو (قفطان) ، او (عنتري) ، بمعنى الثلاثة المتقدمة على ترتيبها ، او لم يفهم كلاهما من المغربي ، قوله فى عاميته المغربية ، (سبنيه) ، بمعنى منديل (180) و (سقلي) ، اذا كان مشغولا بالفضة ، و (جامير) ، بمعنى قميص (وهو بجيم كالجيم التركية والفارسية ينطق بها بين الجيم والشين العربيتين ، كما عرفته من نطق بعضهم) ، أو لم يعرف المغربي ما سبق من كلام كل من الشامي والمصري . فأين يجد الواحد منهم بغيته (185) اذا جاء الى أحد هؤلاء كتاب فى غير لغته العامية ، فيه شىء من ذلك ، وربما لم يكن فى بلدته ، او بلدة قريبة منها ، احد من اهل تلك اللغة ، ولا معرفة بها عنده ، ولا فى شىء من كتب اللغة يجد قصده ؟

فاذا كنت مثلا فى قرية من قرى مصر ، من غير مراكزها (190) المختلطة بها أصناف الامم ، مشتغلا بزراعة او غيرها ، واتانى كتاب من احد اصحابي فى الشام ، أو فى الغرب ، (1) على لغته ، وفيه ما لا أعرف ، فماذا اصنع ؟ أاهمله بالكلية ، وربما كان فى حاجة ضرورية مهمة ، ام اسافر الى موضع اجد فيه من يفهمنى ذلك ولو كنت فى اقصى (195) الصعيد ، ام أبعث به الى عارف اللغتين ، يترجمه كما تترجم اللغات الاجنبية ؟ فقد اصبح كل منا ، اذا تركنا اللغة الصحيحة الجامعة بالكلية (لا قدر الله) ، اجنبيا عن الآخر من ذوى لغته وبنى جلدته ، بعد ان كان بيننا جامعة اللغة . هذا ، ومما قدمناه (200) من اختلاف اللغة ؛ انه قد يوجد فى احدى اللغات العامية ما يخاله من ليس يعرفه شتما او عيبا ، مما يستحيى منه ، بالنظر الى لغته ، وقد وقع من ذلك ، لكثير من الناس ، ما لا يحصى . فما ظنك بمصري نزل بالشام ، فى دار وتعهدت له شامية او شامي بعمل الاكل ، فقال المصري (205) ماذا آكل ؟ فقيل له : (كبه) — والكبة فى العامية المصرية مما يستعمل فى فظيع الدعاء على الغير ، اذ هو فيها الخراج الطاعوني ، والعياذ بالله تعالى . وفى امثالهم العامية : (سنة الكبة يدلع لمخط) ، يضرب لمن يعجب بنفسه وهو حقير ، لدى عدم وجود من يعتد به ، كقول القائل (210) « خلت البقاع من الرخاخ فتفرزنت فيها البيادق » .

1) يقصد « المغرب » .

والكبة ، فى عامية سورية ، طعام معروف لدى اهلها، من اطيب ما يستلذ عندهم . واذا قال المصري للمغربي: (بص) ، فهي عند المصري بمعنى (انظر) ، وعند المغربي من المعاني المستهجنة للغاية .

(215) وكثيرا ما توجد فى عامية بعض الجهات الفاظ تعد عند غير اهل الجهة سخفا وفحشا ، بل من افحش السخف ، وهي عند اهلها معروفة مألوفة ، ليست فى شىء من ذلك ، لا تستحي منها العذراء فى خدرها .

وقد اتفق لي من ذلك يوم دخلنا القدس فى السياحة (220) الشامية ، ان سألت امراة صادفتها فى الطريق عن موضع هناك ، وهو الفندق الذي نزلناه ، وكنت قد اشتبه على الطريق اليه . فارادت ان تقول ما معناه (ها هو هنالك) . فاشارت الى موضع الفندق، وقالت كلمتين ارادت بهما ذلك المعنى ، يقضي بسببها الوهم (225) ممن لم يالف تلك اللغة ، اول وهلة ، ان المراة من فواحش الفواجر المتهتكات . فعجبت من جهرها بذلك الكلام ، على قارعة الطريق ، بمسمع غيرها من فتيات من النساء . وكنت رايتها متقدمة فى السن ، وذلك مما حملني على اختصاصها بالمخاطبة والسؤال ، خيفة ما قد يلحق الغريب (230) من الظنة. فتأملتها ثانيا ، لما استغربت ذلك منها ، فاذا هي كما رايت اولا ، مسنة عليها سمت وقار وسمة كمال، وهي فى ابعد حال مما كان قد ذهب اليه الوهم وسوء الفهم . فلما تكرر سماع ذلك من بعض الفتيات ؛ بعد هذه المرة ، لم اجد سبيلا لسوء الظن (235) ولا اريد ان اصرح بامثال ذلك ، وفى هذا كفاية لمن شاء ، ومن اراد ذلك فربما وقع له ، اذا تجاذب الكلام مع من لم يسبق له وفادة على مصر ، وجرت المناسبة الى ما هو من هذا القبيل . وكل ما ذكرناه هو بالنسبة للحال الحاضرة اليوم . اما لو نقلنا الكلام الى ما قبل عشرين (240) سنة ، مثلا ، لنقيس عليه ما بعد مثل هذه المدة ، لكان الامر اكبر ، لما تراه فى العامية من التبدل والتغير بتغير الاعصار وعدم الثبات والاستقرار.

فلو فرضنا الكلام فى سوري مثلا جاء الى مصر ، او مصري ذهب الى سورية ، قبل نحو تلك المدة ، لوجدنا المصري (245) لا يفهم من السوري ولا كلمة واحدة . فان المصري لو سمع من امراة سورية ، او رجل سوري ، من ذوي السن ، ممن لم يدخل المكاتب، هذه العبارة ، وهي : (سلكت الحئيم آل لي ال اينا) ، لم يفهم ماذا يريد منها ، والمراد (سالت الحكيم قال لي كل كينا) . بل لو سمع (250) شاب مصري شابا سوريا ، من اهل بيروت ، يقول اليوم (وعات على اجرى) ، لم يفهم ماذا يريد ، ومراده (وقعت على رجلي) . وكذلك لو قال السوري للمصري : (انظرني هلا وبجي) ، لم يفهم منه انه يقول (انتظرني حالا اجي) . ولو اراد احد احصاء ذلك ، يلزمه ان يكتب سفرا (255) كبيرا ، هو قاموس اللغتين السورية قبل عشرين سنة مع بعض السورية اليوم والمصرية اليوم . فمن اراد نقل العلوم والآداب من اللغة الفصحى الى اللغة العامية ، لزمه ان يحول (1) بين السوريين والمصريين والبغداديين والتونسيين والمراكشيين وغيرهم (260) ممن يتكلم باللسان العربي ، ويجعل لكل فئة منهم لغة خاصة بهم فى معارفهم وعلومهم وآدابهم . ويصبح المصري ؛ اذا كتب كتابا ، لا يفهمه السوري . والسوري ، اذا كتب كتابا ، لا يفهمه المصري . وهكذا سائر الاقوام العربية ، فيفقد العرب ما عساه يكون بينهم من التعاون (265) على العلم والادب ، ويصيرون الى حال من الفرقة اشنع مما هم فيه اليوم . بل من دقق النظر فى احوال البلاد العربية ، يجد ان البلاد المصرية نفسها ، يختلف بعضها عن بعض ، بما لا يقل عن الاختلاف بين العامة واهل

---

1) الاصح « يميز »

النصيحة الصحيحة . فان أهل (270) الصعيد الاعلى يستعملون من الالفاظ وضروب التعبير ما لا يفهمه أهل البحيرة ، بل لاهل مديرية الشرقية ، مثلا ، من الالفاظ ما لا يفهمه أهل مديرية الدقهلية الملاصقة لها ، الا من تكرر سماعه لها ، بل لاهل المديرية الواحدة ، فى بعض البلاد ، الفاظ تخالف ما هو مستعمل (275) ، فى معناها بالبعض الآخر ، وللعربان كذلك . وهكذا نجد فى سائر البلاد العربية ، فى ما نعلم ، ولا نطيل فى ايراد الامثلة والشواهد على ذلك فوق ما مر . فمن اراد نقل العلم الى اللغة العامية لزمه ان يفرق بين أهل الاقاليم فى معارفهم وآدابهم وباعد (1) بين أفكارهم . وانقلبت الامة بسعيه (280) الى امم مختلفة ، لا يفهم الافراد من احداها ما يقول الافراد من الاخرى ، وهم اهل شريعة واحدة ، وفى بسلطان حاكم واحد ، وكل واحد منهم فى حاجة الى معونة الآخر فى اقل الضروريات واجلها . فان قال اهل ذلك المذهب : اننا نضع كتابا يحتوي على جميع اللغات العامية ، (285) فى الاقطار العربية ، او يحتوي جميع الالفاظ المصرية ، مثلا ، مرتبة على الحروف والابواب ، ويعين فيه لغة كل ناحية من النواحي ، وتفسر بمفاهيم لغات سائر النواحي ، فاذا عثر احد من اهل الغربية ، مثلا ، على لفظ فى كتاب لاحد من اهل جهة اخرى ، راجع ذلك الكتاب حتى يفهم مراده .

(290) قلنا : لو تسنى ذلك لنا بالفرض ، لم يكن ذلك باسهل من مراجعة الكتب اللغوية التي بايدينا اليوم ، على انا اذا اقتصرنا فى كتبنا الصناعية والفنية ، التي يحتاج اليها عامة الناس ، على الموافق للاستعمال الحالي ، والقريب اليه من العربي الصحيح ، وتركنا القريب والبعيد عن المستعمل ، (295) لسهل الامر جدا : كأن نستعمل فى تلك المؤلفات بدل لفظ (اللجين) ، مثلا ، لفظ « الفضة » بمعناه ، فان الثاني ، مع كونه لفظا صحيحا فصيحا ، فى هذا المعنى ، هو كما تراه قريب من اللفظ العامي المستعمل ، لا فرق بينهما الا كسر الفاء فى الصحيح ، وفتحها فى العامي ، فلهذا يفهمه العامي وغيره (300) بخلاف الاول ، ولذا ندعه ونستعمل الثاني ، وكذا نستعمل بدل لفظ (العسجد) مثلا ، لفظ « الذهب » ، لقرب الثاني من اللفظ العامي ، لا يفرق بينهما الا بالذال منقوطة فى الصحيح . والدال غير منقوطة فى العامي ، فلهذا لا يتعسر فهمه . وهكذا ، ومن هذا القبيل ، ما قصدناه (305) على سبيل التمثيل من استعمال كلمتي « المنقوطة » « وغير المنقوطة » ، فى هذه العبارة ، بدل لفظتي « المعجمة » « والمهملة » الغالبتين فى المؤلفات ، ولم نراع هذه الطريقة فى كل ما كتبناه هنا ، لاننا نكتب للخواص لا للعوام . فاذا اعتنينا برعاية ما ذكرناه ، اعنى الاقتصار فى المؤلفات التي يحتاج اليها (310) عامة الناس ، كما ذكر ، لا خاصتهم ، على مألوف الاستعمال ، لم يبق من حاجة غالبا الى مراجعة الكتب اللغوية . الا بالنسبة لمن نصب نفسه للتبحر فى معرفة مفردات اللغة وعلومها ، من العلماء والادباء ، ومن يريد اللحاق بهم ، والترقي فى درجات البلاغة الى (315) درجاتهم ، وما ذاك بمتعين على عامة الناس ، ولا تدعو اليه ضرورة بالنسبة اليهم ومن اراده ، ممن تسمو به نفسه عن تلك الطبقة ، للتوسل به الى علوم التفسير ونحوها واجادة صناعة النظم والنثر وما يتعلق بها ، وجد الكتب التي يحتاج (320) اليها فى ذلك حاضرة ، والطريق مسلوكة ، والطريقة سهلة ، والمرام على طرف التمام(2) بخلاف ما لو تركنا الطريقة العربية فى النطق والمكاتبة

---

1) الاصح « وما بعد »

2) الأصح « الشمام » ــ ر. البكري : فصل المقال (خرطوم 1958) ، 276 ؛ العسكري : جمهرة الامثال ، 2 ، 257 ؛ الزمخشري : مستقصى ، 2 ، 387 رقم 1422 ؛ الثعالبي : ثمات القلوب ، 326/1 ، 373 :2؛ النويري : نهاية ، 3 ، 55 .... ادين المستشرق الدكتور انطون شبيتالر ، جامعة مونيخ ، بفضل كبير لتلطفه بمساعدتي على حل هذه العقدة الفلولوجية وتوجيهي الى المصادر المشار اليها اعلاه .

والتاليف كليا ، وهجرناها مليا ، فان ذلك تندثر به تلك الكتب وتتناسى ، ويضمحل امرها ويتلاشى ، (325) وبتداول الزمن ، يصبح الوصول الى ذلك المراد اصعب من خرط القتاد . على ان العمل فى جمع متفرق اللغات العامية ، وتمييزها ، مما يصعب نجاحه كل الصعوبة. فان واضع مثل ذلك الكتاب الجامع ، لا يصل الى الغرض منه ، حتى يخالط اهل كل اقليم (330) بل كل ناحية ، ويسمع كلامهم فى جميع المقاصد والاغراض، ليتسنى له بذلك الاحاطة بجميع الالفاظ . وهذا يستغرق من الزمن والنفقة ، ما لو صرف بعضه فى حمل الناس على التكلم بالفصيح ، لاتى بالغرض المطلوب ، على اتم وجه واكمله .

(335) هذا كله اذا قصرنا النظر على مفردات اللغة العامية ، وما يوجد بينها من الاختلاف الفاحش .

فان نظرنا الى هيئات التراكيب ، التي تختلف ايضا باختلاف الاقطار والنواحي ، لاحتجنا الى فن نحو خاص بكل قطر ، او بكل ناحية ، ولكان على العربي منا (340) ان يتعلم كل نحو وضع لكل لغة ، حتى يتمكن من فهم ما يكتب فى اللغة العامية ، من اي بلد من بلاد العرب ، وهذا يكلفنا من المشقات اضعاف ما يكلفنا تعلم نحو اللغة العربية الفصيحة . ونحتاج ايضا الى وضع علم لرسم كلمات هذه اللغة العامية ؛ لتكون (345) كتابة كل جهة جارية على اصول مضبوطة ، وطريقة واحدة ، والا صار كل واحد من افراد الناس ، يكتب بهوى نفسه ، على حسب ما يعن له ، من غير قاعدة مقررة ، ولا قانون ضابط . فمثل (اللى) ، فى العامية ، بمعنى (الذي) فى الصحيحة : هل تكتب (350) بلام واحدة ، مثل ما يكتب (على) فى اللغة الصحيحة ، بلام واحدة مشددة، جريا على قاعدة الادغام المرعية عند اربابها فى النطق والرسم ، ام تكتب « اللي » بلامين ، بناء على ان تلك القاعدة خاصة باللغة العربية الصحيحة لا غيرها ، كما تكتب (قللي) (355) من اللغة التركية ، بمعنى « ذي شعر » بلامين ، و (اللي) ايضا ، بمعنى « خمسين » ، بلامين كذلك ، لعدم رعاية الادغام عندهم ، واختصاصه باللغة العربية الاصلية الصحيحة؟ ومثل (قل لي المحرفة من قال لي) ، هل تكتب بلام واحدة مشددة ، ام تكتب (360) بلامين متصلين ، او منفصلين ؟ وعلى كل هل تكتب بالف بين القاف واللام ، على الاصل ، للتفرقة بينها وبين (قل لي) المركبة من فعل امر وجار ومجرور ؟ ام هل تترك الالف من الرسم، لسقوطها فى النطق ؟ وعلى كل تكتب (1) بالهمزة بدل القاف ، (ال لي) (365) او (آل لي) (الي) ؟ او غير ذلك . ثم على كل هل تكتب بالهمزة فى اولها ، بدل القاف ، لان النطق بها كذلك فى العامية ، فى بعض البلاد ، مثل القاهرة ، او بالقاف الحقيقية ، لان النطق بها كذلك ، فى بلاد آخر كرشيد ؟ او تكتب بالجيم ، رعايةلحال النطق بها فىبعض (2) آخر كالصعيد (370) لان اهله ينطقون بها بما يشبه جيما غير معطشة ، كالجيم العامية المعتادة فى القاهرة ؟ او تكتب بالقاف ، ويُرمز لها بما يميزها عن القاف الحقيقية ، او بالجيم مرموزا لها بما يميزها عن المعطشة ؟ او يوضع لها حرف جديد ؟ وبالجملة يلزم وضع علم للرسم فى هذه (375) اللغة العامية ، اذا نقلنا اليها الكتابة والفنون، لتتحد الكتابة فيها، والا انتشر فى كتابتها الخلاف، وعمل كل برايه وعلى حسب ما يراه الصواب . ويتسع الاختلاف كثيرا فى رسم الكلمة الواحدة فى بلدين ، مثلا، بل فى بلد واحد، بحسب اختلافالانظار فيما هو (380) الصواب فى الرسم ، وهلم جرا ، الى سائر ما يلزمنا استحداثه من الفنون ، لنقل التآليف والكتابة الى اللغة العامية . وبعد هذا كله نرجع ونقول ان الزمن الذي

---

1) الأصح « اتكتب »

2) الأصح « بعض بلاد الصعيد »

يكفينا لتعلم الفنون والقواعد لهذه اللغة العامية ، من نحو ورسم وغيرهما ، يكفينا لتعلم لغتنا العربية الصحيحة (385) ، ونربح وحدة اللغة ، وعدم حرماننا من الانتفاع بمؤلفات اسلافنا فوق الف سنة ، مع الاقتصار على الضروري من تلك القواعد اللغوية ، بقدر ما يلزم لعامة الناس ، لا خاصتهم ، كما مر .

فان قال احد من اهل هذا المذهب : لا يلزم (390) وضع قواعد لهذه اللغة العامية ، لانها معروفة عند العامة والخاصة باستعمالها وتداولها فى التكلم فيما بين اهلها . قلنا : لو كان الامر كذلك ، لما اضطرت كل امة من الامم المتمدنة الى وضع قواعد لضبط لغتها التي يتكلم بها كبيرهم وصغيرهم وفاضلهم (395) ومفضولهم مثل معرفة عامينا للغتنا العامية فى الاقل ، ومع ذلك احتاجوا لوضع القواعد فيها ، حسما لما ينشأ عن عدم وجود القواعد من الخلل والمفاسد ، وقد بينا بعضه .

فان قالوا : ان الطريق الذي سلكه المتقدمون(400) فى الاحاطة باللغة العربية الفصيحة ، وحصر موادها ، وضبط قواعد النطق بها ، نسلكه فيما نريد من ذلك للغة العامية . قلنا : كانت اللغة العربية وصلت الى حد الكمال ، واستقرت على حالة رسخت فى الاذهان ، وثبتت فى القرائح ، واختلط اهلها من جميع اطراف (405) البلاد العربية ، حتى عرف كل منهم مجرى التخاطب عند الآخرين : فكان البدوي من اهل اليمن يخاطب الحضري من اهل الشام والعراق فلا يرتاب واحد منهما فى لفظ مما ينطق به الآخر ، الا ان يكون لفظ طرأ من لغة اجنبية ، فعربه التوليد (410) وهو مما لا يلتفت اليه فى لغة واسعة ، ثم انقرضت الطبقة التي كان يعتد بلغتها ، ويستشهد بكلامها ، فى اثبات مفردات اللغة وعلومها .

واستقرت لغة القوم على ما كانت عليه الى ذلك العهد ، لا تقبل تغييرا ولا تبديلا . ولهذا سهل على واضعي قوانينها (415) وحفاظ موادها ، أن يحيطوا بأطرافها ، ويأتوا على كل جوانبها . وافادها الشرع الشريف تأييدا وتأييدا ، وامدها امدا مديدا ، بخلاف حال العربية العامية المستعملة اليوم ، فهي عرضة للتغيير والتبدل . فحال العربية فى هذا الزمان ، مخالف لحالها فى تلك الازمان (420) كما ان حال اهلها الآن ، يختلف عن حال الاسلاف كمال الاختلاف .

الوجه الثاني : ان اللغة العامية لم تبلغ مبلغ لغة ثابتة فى موادها ، ولا فى هيئات تراكيبها ، حتى يعول عليها ، وتوضع فيا العلوم والاداب ، وانما هي (425) تحريف لغة اخرى . ولهذا نرى التبديل والتغيير فيها ، كما ذكرنا ، لا ينقطع . وما ذكروه من المثال غير صحيح ، ولن يصح : فان اللغة التلبانية ، او الاغريقية الحديثة ، لغة استقرت ، وثبتت ، وصارت ملكة فى الناطقين بها ، لا ينحرفون عنها ، كلهم متفقوا الكلمة فيها ، غير متوفرة (430) عندهم اسباب التغير ، كما عندنا ، ولهذا بعثهم الباعث الطبيعي على اعتبارها مدار التخاطب ، فى جميع المقاصد . وليست الحال عندنا كذلك . والفرق بيننا وبينهم ظاهر واضح ، لا نحتاج فى بيانه الى الاسهاب والاطناب ، فى هذا الباب ، وانما نلم به بعض الالمام (435) وندع ما وراء ذلك الى تدبر من ينعم النظر فى مجاري الاحوال الطبيعية ، وترتب المسببات على الاسباب فنقول :

كانت أمة العرب ، قبل الاسلام منحصرة فى بلادها ، غير منتشرة فى آفاق الارض (نريد انتشار الجماهير المجمهرة ، والالوف المؤلفة ، للغلبة والاستيلاء (440) والفتوح ، لا انتشار الافراد والجماعات القليلة ، للتجارة ونحوها من الاسباب ، فان الثاني لا ينشأ عنه اثر ذو بال ، واهمية ، بخلاف الاول) . ثم ظهر فيها الدين المبين الاسلامي ، وكثر وانتشر ، وقوى اهله ، وسارت الدعوة اليه ، على يد القائمين به ، (445) الناصرين له ، الناشرين

كلمته ، الى من جاورهم ومن قاربهم ، ومن بعدهم ، وغيرهم ؛ وتوالت على ايديهم الفتوح ، حتى انتشروا فى مشارق الارض ومغاربها ؛ مؤيدين بالظفر ، ظافرين بالنصر ، واسلم معهم من اهل البلاد التي احتلوها من اسلم، فصار منهم (450) وانقاد من لم يسلم، فدخل فى ذمتهم ، واقام فى كل صقع ناس منهم ؛ للقيام بالامر ، وتقرير احكام الشرع ، وتعليم اصول الدين وفروعه ؛ وحفظ البلاد التي دخلت فى يدهم من الخروج عن كلمتهم ، واختلطوا مع اهل تلك البلاد ، على حكم الضرورة ، فى المعاشرة (455) والمحاورة ، وسائر ما تستتبعه المساكنة والمجاورة ، وامور المعاملة ؛ والتصق اهل تلك البلاد بهم ، واختلطوا معهم ، وتعلموا من لغتهم وعادتهم ؛ وسرى من كل فريق منهم اشياء الى الآخر بحكم المخالطة، وتوالي الايام والاعوام عليها . وانتقل ذلك الى الابناء بعد الابـاء (460) ؛ والاحفاد بعد الاجداد ؛ الى ان صار اهل تلك البلاد التي دخلوها واستولوا عليها ؛ مزيجا مركبا ؛ صدق فيه ما قيل « نبط استعربوا (1) وعرب استنبطوا » ؛ وان يقال « عجم استعربوا وعرب استعجموا » . وثبتت اللغة العربية فى البلاد التي كانت (465) تمكنت فيها تلك اللغة فضل تمكن ، كمصر ، مع ما طرا عليها من التحريف والتغيير ؛ وازداد بطنا بعد بطن ؛ وقرنا بعد قرن ، لا سيما بعد ان تقلصت ظلال دولة العرب، وخلفهم على البلاد غيرهم من امم مختلفة ؛ واجناس من الناس متباينة (470) تداولتها ؛ واستولت عليها . كما انها دخلها ايضا ولا يزال يدخلها اخلاط من الامم ؛ للتوطن والاقامة ، كثير منهم موافق لاهل البلاد ؛ فى اصل اللغة ، ومطلق التحريف ، مخالف لهم فى كيفيته ؛ فيأخذون مما عند الاهلين ؛ ويأخذ الاهلون مما عندهم . وهكذا صار وقوع التغيير (475) بهذه الاسباب طريقة غير متغيرة ، عرفها من عرفها ؛ ولا ينكرها الا من جهل امرها .

فما ذكروه من المثال غير منطبق على الحال ؛ كما قلنا ، لامور كثيرة ، منها انك ترى الايطاليانيين ، مثلا، اذا دخل عندهم رجل من امة اخرى ؛ للاقامة بينهم (480) فلغته غير لغتهم ، فهو اذا خاطبهم او كاتبهم ؛ فاما ان يخاطبهم ويكاتبهم بلغته ؛ وهو نادر مع من يعرفها ؛ او بلغتهم المباينة للغته ، فلا يحصل من التداخل فى الحالين بقدر ما عندنا . اما نحن فاذا دخل عندنا السوري ، او المغربي ، مثلا ؛ فاصل لغتنا ولغته واحد (485) ، ولكنه عنده تحريف ؛ وعندنا تحريف آخر ، فيقع التداخل والتبادل ، الى غير ذلك مما قدمناه ؛ كما يعلم بالتأمل وصحة النظر . فظهر ان المثال غير واقع موقعه ؛ والقياس غير مصادف محله ؛ ولا يقاس المثل الاعلى المثل ؛ ولا يصح القياس الا عند عدم الفارق (والفرق مثل الصبح ظاهر). (490) ثم ان من تتبع احوال اللغة العامية المستعملة عندنا وجد انها كما تختلف باختلاف الازمنة ، تختلف ايضا باختلاف الاشخاص والامكنة ؛ فانك تراها ترتقي الى القرب من موافقة اللغة الفصحى عند اهل العلم ، وعند البعض ممن يخالطون العلماء (495) ، وفى البلاد التي تنتشر فيها الجرائد . وكما انك ترى هذه اللغة عند هؤلاء ترتقي الى هذه الدرجة ؛ تراها تسفل وتنحط عن الفصيح ؛ عند من لا يعرفون سواها ؛ ولا حركة للسان الجرائد فيما بينهم . وتتغير هيئات المواد ، وصيغها ، وهيئات تراكيبها ، بحسب (500) اختلاف الاشخاص ومراتبهم فى المعرفة ، بلا تكلف لذلك ؛ ولا قصد اليه . وتجد لفظا له هيئة ثابتة عند العامة ، بحيث لو غيرت تلك الهيئة لعد لحنا عندهم وغلطا ،

---

1) النبط بفتحتين والنبيط قوم ينزلون بالبطائح (آ) والعجم خلاف العرب .
(آ) « البطائح » فى النسخة الاصلية .

بل اللسان فيها مطلق عن كل قيد ، يذهب فى الالفاظ حيث يشاء (505) الناطق . فلو اردنا تقريرها ونقل العلوم اليها لعسر علينا تعيين هيئة خاصة فى المواد والتراكيب . وكان حمل الناس على التزام تلك الهيئة أشد عسرا . ولكونها تعد تحريفا لا لغة وليس لها هيئة ثابتة ، ولا سلطة لنا على لسان العامة ، ما دام التحريف له (510) عادة ، نقول اننا مهما حرصنا على هذه العادة ، التي سميناها لغة ، لا نأمن ان نراها بعد قرن واحد قد صارت الى ما لا نتصوره الآن . ويأتي اهل القرن الثاني ويقولون فيما وضعنا اليوم مثل ما نقول فى اللغة الفصيحة . وهكذا يستمر التغيير والتبديل (515) فى اللغة العامية: فاما ان يتبعه التغيير والتبديل فى الكتب والكتابة ، كل زمان ، قرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل ، تبعا لتغير نطق اللسان ، كما يريدون ان يكون الآن ، حتى ما يفهم جيل من الناس لسان من قبلهم من الاجيال ، ولا يفهم لسانهم من ياتي (520) بعدهم ، ويصير كل جيل منهم امة قائمة بنفسها ، منفردة بذاتها ، وحدها عمن قبلها ، ومن بعدها ، وهذا الامر ، فضلا عما يتبعه من طول العمل فيه ، وكثرته ، وتكرره ، والعناء فى تقريره ، عصرا فعصرا ، لا يخفى ما فيه .

واما ان لا يتبع ما يحدث من التغيير والتبديل(525) فى النطق تغيير وتبديل فى الكتب والكتابة ، بل تبقى الكتب والكتابة ثابتة على ما يتقرر اول مرة، لو حصل، مهما تغير التكلم ، وتبدل ، وحينئذ نرجع الى ما نحن فيه ، من ان الكتب تكون على لغة ، والنطق على غيرها ، ويضيع التعب سدى والعمل عقيما عن (530) الفائدة ، بل يزيد على ذلك ، انا نكون بهذا العمل ، قد استحدثنا لغة زائدة ، فيزيد الطين بلة ، وتكون المؤلفات القديمة ، المؤلفة فى اكثر من الف سنة فى آفاق العالم ، واقطار الدنيا ، مبنية على لغة مهجورة حينئذ ، وهي العربية الصحيحة ، وتكون الكتب التي تستحدث (535) الان على لغة غيرها ، وهي العامية المستعملة الان ، التي ستهجر بعد ، ويكون التكلم على لغة اخرى ، وهي التي تحدث للنطق بعد جيل ، مثلا ، فان تبع تغيير الكتب تغيير النطق والتكلم ، على الوجه الاول ، تكون لغة رابعة ، فان تغير بعد ذلك ايضا ، تستجد لغة خامسة ، وهكذا تتسلسل (450) اللغات الى ما يتناهى لو حصل ذلك . (لا حصل) .

فان قيل : ان اللغة العامية الحالية انما كانت عرضة للتغير والتبدل لعدم تقييدها بالكتابة وتركها هملا ، تتبع كل ريح بخلاف ما لو قيدت بالكتابة ، ودونت فيها الكتب ، وجرى عليها العلم والتعلم ، واستمر الحال (545) جاريا على تلك الحال ، فانها بذلك ترسخ وتثبت ، ولا يعتريها التغير .

قلنا : هيهات . فان اللغة الصحيحة ايضا كانت مقيدة بالكتابة ، مدونة فيها الكتب ، جاريا عليها التعلم والتعليم ، مؤيدة فوق ذلك بانها لسان الشرع والديانة (550) ثم انقلبت الى لغة اخرى ، على ما يقولون . فلم لا يجوز على غيرها ، وهو دونها ، ما جاز عليها ، وهي بهذه المثابة ؟

فان قالوا : يلزم بعد تقرير هذه اللغة العامية ، وتقييدها بما ذكر ، ان نمنع العلوم ، بالحكم والالزام ، عن التغير والتبديل فى الكلام، ونلزمهم الاستمرار (555) على الحالة التي تتقرر الان ، وعدم العدول عنها ، حتى ترسخ وتثبت ، وتصير لغة مستقرة وعادة مستمرة .

قلنا : ان الوصول الى تلك الغاية (لو امكن الحصول عليه) ، انما يكون على ذلك بصنع المتصنع، لا بحكم الطبيعة . ولا شك ان حصول الشيء بالصنع لا يكون كحصوله (560) بالطبع . ثم هذا المنع والالزام انما يمكن ، لو امكن ، ويتم ، لو تم ، فى الاجيال الطويلة ، وبالنسبة للاهالي خاصة ، وفى المجامع والمواقع الرسمية خاصة ، وفى المكاتبات والمخاطبات التي تقصد بها الحكومة خاصة ، والا

فكيف ، ومن اين يتأتى التحكم على الناس بالمنع (565) والالزام ، فى شيء من الكلام ، فى المحاورة والمحادثة ، بين افرادهم ، ومع اهلهم ، وأولادهم ، وعائلاتهم ، وقرابتهم ، وصحابتهم ، وسائر ذوي تعلقاتهم ، وفى خلواتهم ، وجلواتهم ، ومزارعهم ، ومصانعهم ، ومحال حرفهم وصنائعهم (1) ، حتى تصير القاعدة عامة ، والفائدة تامة ؟ هذا ضرب (570) من المحال ، وامر انما يتصور فى الوهم والخيال ، لا يخرج من القوة الى الفعل ، ومن القول الى العمل .

والغرض الذي يقصدونه فى تسهيل العلوم ، لا يزال مفقودا فى جميع الاحوال . فان لسان العامي ليس تحت سلطة الواضع ، ولا سبيل لتقويمه الا التربية والتثقيف . فان كان الواضع نفسه ساعيا فى ترويج التحريف ، واللسان مندفع اليه ، فلا ممسك له عنه ، ولا تكون لغة النطق هي لغة الكتابة ، ويعود الاشكال بعينيه . فلا بد لتسهيل التحصيل وتعميم التعليم من صرف النظر الى شيء آخر .

(580) الوجه الثالث ، ان اللغة العامية جملة مواد اختزلت من اللغة الفصيحة ، واضيف اليها بعض الفاظ اجنبية ، من لغات الاقوام الذين دخلوا فى اللغة، ولم يستطيعوا اللحاق بأهلها . وانما حفظ منها ما اشتدت اليه حاجة المتكلمين بها ، للتفاهم فى الاغراض المعاشية (585) الظاهرة . اما العلوم والآداب ، فلم يكن لهذه اللغة حظ منها . فلو اردنا نقل العلوم اليها ، لكنا فى حاجة شديدة الى استعارة المواد من اللغة الفصيحة ، وصوغها فى تراكيب تناسبها ، حتى تتم الفائدة . فان لم نفعل ، احتجنا الى وضع لغة جديدة للعلوم والآداب ، نضمها (590) الى اللغة العامية الموجودة ، ونسمي المجموع لغة عربية عامية ، تحاكي لغتي الايطاليين والاغريقيين الحديثتين . وانا نجد بعض الكتب التي ترجمت ، أو ألفت ، فى سوريا ، وفى مصر، بعبارة تقرب من العامية ، لعجز المترجمين لها عن استعمال الفصيح فى المفردات والتراكيب ، قد صار بمنزلة (595) الموجود فى لغة اجنبية ، ولا يجد المطالع سبيلا الى فهمه الا بالاستفهام من مترجمه ، أو مؤلفه. فاللغة العامية لغة قاصرة ، ولا سعة فيها للعلوم، ولا للشرائع ، ولا للآداب ، ولا للسياسة ، فكيف يمكن الاستغناء بها عن اللغة الفصيحة ؟

(600) ولو اردنا الاطالة فى ابطال هذا الراي ، وايضاح الفساد فى مقدماته ، لاتينا بتفصيل يحويه سفر طويل ، وغرضنا الآن عجالة تثبت راينا ، فان دعا داع للتفصيل ، واستيفاء الادلة ، والاكثار من الامثلة ، رجونا ان نفي بالغرض من ذلك .

(605) والذي نراه : ان اللغة العامية ، خصوصا فى مصر وسورية وجزيرة العرب والعراق وتونس وطرابلس الغرب ، لم تبعد عن الفصيح بما تصير به لغة مستقلة . فان المواد هي المواد الاصلية بعينها ، الا ما زاد عليها ، وهو قليل لا يلتفت اليه ، فى تكوين لغة . وهيئات التراكيب (610) ترجع الى الهيئات المعروفة فى تركيب الكلام العربي . غير انه قد عرض على المفردات تحريف وتغيير ، بنقص أو زيادة ، لم يخف بها أصل اللفظ بحيث لو جرد اللفظ من الزيادة ، أو كمل من النقص ، او صحح من التحريف، لم يستبهم معناه على العامي . فان العامي الذي يضع (اللي) مكان (الذي والتي) فيقول (615) : (اللي يفعل الخير ينال ثوابه) ، لو قيل له بدل هذه العبارة (الذي يفعل الخير ينال ثوابه) ، لفهمه كما يفهم لفظ العامي. ولا يزال الكثير من العامة يضع «الذي» مكان « اللي » ، فيستعمل عاميته مع الفصيح كأنه مخير فيهما ، كاللفظين المترادفين ، ولفظ « هنا » بكسر الهاء (620) ، لا تختلف عن « هنا » ، بضمها ، الا بالحركة ، ولا ينقلب معناها عند العامي ، لو نطقت صحيحة . وهذا هو الشان فى جميع الالفاظ المفردة . وعلى نحوه يكون الخطأ فى التراكيب : فان الذي يفهم

---

1) فى الاصل « صنائعهم »

(الرجل جه) يفهم (جاء الرجل) ، والذي يفهم (ما عليهش) يفهم (ما عليه شيء) (625) والذي يفهم (ايه ده) أو (شوهادا) ، من مصري أو سوري ، يفهم (ما هذا) و (اي شيء هذا) ، وما شابه ذلك من الاستعمال الفصيح . وقد تقدم شيء من هذا ، في مقارنة اللغات العامية . فالتحريف وفساد التركيب لم يذهب بالعامة عن فهم الصحيح بالمرة ، بل هم يفهمون (630) منه ما اتفق مع الفاظهم في المادة ، وانما يعمى عليهم فهم الغريب .

واما قول ارباب ذلك المذهب : « لو فرض ان اتى الى جهة يتكلم اهلها باللغة العامية المستعملة الآن من لا يعرف الا اللغة الفصيحة لم يمكن ان يفهموا (635) منه أو يفهم منهم الخ (1) فمما يخالف العيان والمشاهدة : فطالما شوهد كثير ممن يأتون الى مصر يتكلمون بالعربية الصحيحة، مثل بعض الجراكسة الذين لم يتعلموا من العربية الا الفصحى ، وليس لهم كتابة الا بها ، وبعض المغاربة من اهل فلاتة وغيرهم ، فيتكلمون باللغة(640) العربية الصحيحة ، فيقضون مآربهم . ومن اعضاء هذا المؤتمر الحبر ، العلامة ، الشيخ محمد محمود الشنقيطي : سمعناه يتكلم في مصر باللغة الصحيحة فيفهم غيره ويفهم من غيره . وجاء من اهل سنطو الشيخ عثمان ابن جم ، ولم يتكلم الا بها ، وكان يفهم ويفهم ، حتى اعتاد (645) بعض العامة على التكلم معه باللغة الصحيحة ، من كثرة المخالطة ، وامثال هذا كثير . وكان العلماء لا يتكلمون الا باللغة الفصيحة ، ولم يكن بينهم وبين العامة ترجمان . واما ما يحكى عن بعض العلماء ، من انه كان يسكن في بعض الاماكن المعروفة في مصر بالوكايل ، فقال للبواب ذات (650) ليلة ، يأمره بفتح الباب : (« فتحا بواب » ، مصدر مؤكد لعامله المحذوف الخ) ، فلم يفهم منه البواب ، وظنه يشتمه ، وشكاه في صبيحة الليلة الى شيخ الجامع ، زمن العلامة الشيخ القويسني ، فما دهي الا من التشدق في الكلام ، ولو اقتصر على ان قال : (افتح) لفهمه (655) البواب بالسهولة ، ووافق العامي ولفظ القرآن ، وفهمه كل من سمعه من العامة ، بلا ادنى صعوبة .

وكيف لا يكون ما نقول ، وجميعهم يحفظون شيئا من القرآن الكريم ، يتلونه في صلواتهم ، والغالب منهم يضم الى ذلك شيئا من الادعية ، والاوراد وشيئا من الحديث (660) ، يستشهد به ، ثم هم في كل يوم جمعة يسمعون الخطبة باللغة الفصيحة ، وما من سامع منهم الا تظهر عليه علامة الفهم ، بما يظهر على وجهه ، وفي حركات بدنه ، ثم هم يسمعون الوعاظ في المساجد ، والكثير منهم يحضرون في دروس العلم ، فهم وان لم يحسنوا النطق في كلامهم جملة ، فهم يفهمون (665) ، اللهم الا ما كان من الغريب أو معقد التركيب .

وفساد النطق ليس من الملكات التي يلحق محوها بالمستحيلات ، كما يزعمون ، بل ازالته ايسر من جعل اللغة العامية مستقلة ، يتفاهم بها في العلوم والآداب ، وتوضع لها القواعد ، وتؤسس لها القوانين وما (670) على طالب ذلك الا تعميم التعليم ، والزام المتعلم بتقويم لسانه عند النطق ، وتصحيح عبارته عند الكتابة ، من مبدأ التعليم الى نهايته . فان المواد لا اختلاف فيها ، الا بنوع من التحريف ، كما قلنا . وهيئات التاليف لا فساد فيها ، الا بنوع من سوء الترتيب . فاصلاح ذلك لا يزيد على (675) اصلاح لغة الطفل اذ ينطق بها ، وهو في سن السنتين، أو الثلاث ، محرفة ، سيئة التاليف ، ثم لا يزال يصلحها له المصلحون ، حتى يكون كاحدهم ، وهو في الخامسة ، أو السادسة من عمره ، واما ما يرونه من صعوبة المسالك الى

1) ر : السطر 5 – 10 .

تحصيل العربية الصحيحة ، وتعسر نيلها فى الازمان (680) الطويلة ، فذلك لا نراه الا من اعوجاج طرق التعليم ، وفساد مذاهب بعض المعلمين فيه ، لا من بعد اللغة نفسها عن يد المتناول .

فالذي نراه لتسهيل العلوم على العامة ، ان نصلح لغتهم بالتقويم ، على النحو الذي قلناه ، ثم تكتب الكتب (685) فى الآداب العامة والفنون الابتدائية التي يجب تعميمها ونشرها بين افراد الامة كافة ، باللغة الفصيحة ، على شريطة ان لا يخرج الكاتب عن المفردات المستعملة فى لغة العامة ، فيجمع فى تلك الكتب بين موافقة الاستعمال والصحة : فاذا اراد ان يقول (مغلق) ، مثلا ، فلا يقول (مرتج) لانها (690) بعيدة عن الاستعمال العامي ، وقد مر شيء من ذلك ، ولا يقول ايضا (مقفول) ، من اقفل ، بل يقول منه (مقفل) ، ولا (مغلوق) ايضا ، فانها رديئة متروكة والفصيح (مغلق) . فاذا كان المعنى لا لفظ له فيما يقول العامة ، فيأتي بلفظ عربي ، ثم يفسره بما يوضح معناه ، ان لم يكن (695) معروفا ، وما دخل فى اللغة العامية من الالفاظ الاجنبية يمكن طرحه منها ، واستبداله بافضل منه من اللغة العربية . والاحسن ، والاقرب للاعتماد والاعتداد ، أن يكون هذا بمعرفة جمعية علمية تتالف من مشاهير الافاضل ، كما ذكره سيدي الاستاذ الوالد فى آخر كتابه (700) الذي الفه فى المقارنة بين الوارد فى نصوص الشرع والوارد فى الهيئة . فانه اذا كان اختيار اللفظ بمعرفة من يوثق بهم ، ويعتد بحسن اختيارهم ، قوبل بالقبول ، وتناوله الاستعمال . ومتى استعمل عند بعض القوم سار فى البقية ، وتمكن فى لغة الكافة ، (705) كما نراه فى لفظ (اللجنة) و (المؤتمر) ، مثلا ، فانهما قبل عشرين سنة ، لم يكونا معروفين فى معناهما ، الا عند البعض من اهل العلم خاصة ، وقد صارا ، من بعد استعمال صاحب الجوائب لهما ، واتباع اصحاب الجرائد له على ذلك ، من الالفاظ العامية التي لا يخفى (710) مفهومها على احد . هذا فى المفردات ، اما هيئات التراكيب ، فتكون على اقرب ما يمكن من تآليف العامة ، على شرط الصحة والفصاحة . ثم بعد ذلك، ينظر فى اللغة الفصيحة ، ويجلب منها ما يحتاج اليه فى التعبير عن المعاني التي لا لفظ لها على السنة العامة فى انواع الفنون (715) والآداب ، لمن يبتغي الارتقاء فيها الى اقصى غاياتها ، فتكون سعة لغة الشخص على قدر سعة علومه ومعارفه . اما البلغاء والفصحاء، واهل الطبقة العليا ، فى الكلام ، فلهم فى خطاب بعضهم بعضا ما لا يكون لغيرهم ، ولا يجب على أحدهم ان يجتنب من الالفاظ وصور التراكيب (720) الا ما ينكر عند علماء المعاني والبيان ، واهل الذوق من حفظة اللسان . بل ربما حسن لاهل تلك الطبقة فى البليغ من النظم والنثر ، والترفع عما لا تلجيء اليه الحاجة من الالفاظ المبتذلة العامية السوقية ، وان كانت صحيحة ، حيث لا يقصدون مخاطبة العامة(725) حتى عيب على بعض البلغاء استعمال بعض الالفاظ المبتذلة . اما فى مخاطبة العامي ، فيجمل بهم ان ينزلوا الى الطبقة التي يفهمونه بها ، فانهم يمكنهم ان ينزلوا إليه وهو لا يمكنه ان يصعد اليهم ؛ وبهذا تمتاز طبقة العامة عن طبقة الفصحاء البلغاء ، مع اتحاد اللغة (730) وسهولة الفهم على اهل كل طبقة فيما يلائم حالها .

فمن كانت له همة تسوقه الى اصلاح فى علوم العرب ولغتهم ، رجونا له النجاح ، اذا انعم النظر فى الطريقة التي ذكرناها ، وتكميلها ، وتعديل طريقة التعليم وتسهيلها ، حتى تكون اقرب الطرق للتوصل (735) الى المقصود ، من نشر العلوم وتعميمها ، مع بقاء الوحدة فى اللسان ، وانتفاع المصري بكتاب السوري ، والسوري بكتاب المصري ، وكليهما بكتاب المغربي ، وهلم جرا ، واستفادة كل عربي مما يكتب الآخر ، فى اي قطر ، لان المواد على هذا لا تختلف (740) عما هو موجود فى كتب اللغة المحفوظة عند

جميع اهل اللسان ، فما استبهم من الالفاظ سهل مراجعة المعجمات لفهم معناه .

ومن طرق التعديل والتسهيل والاصلاح ، التي اشرنا اليها ، الاقتصار للمتعلم على اللازم الضروري (745) دون سواه ، فى غير الفن الذي هو بصدد ان يتخذه صناعة له ، وحرفة خاصة يستعين بها على معيشته ، وانتفاعه من وطنه ، وانتفاع وطنه منه ، مع كمال الاعتناء بمزيد تمكينه فى ذلك اللازم ، بزيادة التمرين على الاستعمال ، وتطبيق العلم على العمل ، ثم مساعدة (750) التعقل (1) بالنظر والمشاهدة فيما يستدعيه ذلك ، مثل الطبيعة والكيمياء . وليقس ما لم يقل ، فقليل يتقنه المتعلم ويتمكن فيه حتى يصير ملكة راسخة ، خير جدا من كثير يحفظه عن ظهر قلبه، من غير ان يعرف له معنى، ويعيده على وجه ما سمعه كما يقول (755) الببغاء . واللازم الضروري من علم العربية ، لكل ذي حرفة سواه ، ليس بكثير يعطل عن غيره لغاية ان يختار من اجل ذلك ترك العربية الصحيحة بالكلية ، بل هو ربما لا يزيد عن قواعد اللغة العامية ، لو اريد ان يجعل لها علوم وقواعد ، كما يراه من يذهب (760) ذلك المذهب ، اذا اتى الامر عن بابه وسهل سبيله ، وازيل وعره . وما اوهم العسر ، وهول الامر ، الا ما قد يكون من ركوب التعاسيف فى التعليم ، وعدم الاعتناء برعاية ما تتاكد رعايته ، من معاملة كل صنف من المتعلمين بما يليق به ويناسبه ، (765) بالنظر الى ما هو معدله . فاذا اعتنى بذلك ، سهل الامر ، ولم يبق بنا ادنى حاجة لترك لغتنا الجامعة لاشتاتنا ، الموروثة عن اسلافنا .

ثم فى هذه الطريقة التي اخترناها ما يحفظ على العرب آدابهم وعلومهم التي اودعتها كتب الاقدمين (770) . فان العامي متى تقوم لسانه ، كما يقوم لسان الصبي ، على ما قلنا ، وكتبت له الكتب القيمة بالعبارة السهلة ، واستنار عقله بما اودعته من الآداب والافكار الصحيحة ، رايته على مقربة من اللغة الفصيحة ، لا يبعد عنه تناول ما فيها، فلا يحرم من تاريخ(775) امته ولا من اصول شريعته ، ولا الآداب المودعة فى السنة النبوية ، ولا من الفوائد الجمة المطوية فى الاخبار العربية . كل هذا يكون قريبا من العرب جميعا ، اذا سلك بهم تلك الطريق القويمة ، ولا يحتاجون فى علم ذلك الى العناء الشديد فى نقل جميع (780) علومهم ، المودعة فى كتب لغتهم ، الى تلك اللغة الاخرى ، التي ظنها من ظن ، لغة جديدة ، لا سبيل لانتشار العلم الا باعتبارها كذلك .

وآخر الكلام ان اللغة العربية الفصيحة هي سبيل تقدم العرب فى جميع احوالهم . فان وجدت(785) الناصر ، وانبعث الى العمل من وجهه ، اشرقت على العرب انوار العرفان من مطالع لغتهم الشريفة ، واضاء عليهم من سناها ما اضاء على امم العالم اجمعين ، عدة قرون ، لم يخف علم حالها على الناظر فيها .

والله اعلم

تم بقلم كاتبه محمد ريحان فى 12 صفر الخير 1307 هجرية ! (2)

---

1) « التعقل » بمعنى « ملازمة المكان » لا تفي بالغرض المعني هنا وربما كان قصد الكتاب « التعقل » .
2) الموافق 9 اكتوبر ، تشرين الاول ، 1889 م .